مجلة الاجتهاد للدراسات القانونية والاقتصادية ISSN: 2335-1039
المجلد: 10 العدد: 01 السنة 2021 ص 51 - 71

تاريخ الإرسال: 2021/01/30 تاريخ القبول:2021/02/08

ظاهرة التكفير وأخطارها دراسة شرعية تاريخية تحليلية

The takfir phenomenon and its dangers: a sharia, analysistic and historical study

أ.د محمد توفيق رمضان[1*]

[1]كلية الشريعة، جامعة دمشق (سوريا)، boutitoufikramadan@gmail.com

الملخص:

لعل من أخطر الظواهر التي تهدد سلامة الأمة ووحدة كلمتها تلك الظاهرة التي تتمثل بما يسميه البعض بظاهرة التكفير. وهي ظاهرة قديمة، عانت منها الأمة في الصدر الأول من تاريخنا الإسلامي. ثم انحسرت أو انحسر أثرها وانقرضت أكثر أطيافها، حتى ظهرت في العصر الحاضر لتمارس جرائمها مرة أخرى .

الكلمات المفتاحية: التكفير، التطرف، العنف.

Abstract:

Perhaps one of the most dangerous phenomenon that threat the nation safety and its words unify, is what some called the takfir phenomenon. It consider as an old phenomenon which the nation has been suffered with since our early history, Subsequently its effect and spectrums has reduced until the current age when appeared to practice its crimes again.

Keywords: Takfir , extremism , violence

*المؤلف المرسل

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين وبعد،

فلعل من أخطر الظواهر التي تهدد سلامة الأمة ووحدة كلمتها تلك الظاهرة التي تتمثل بما يسميه البعض بظاهرة التكفير. وهي ظاهرة قديمة، عانت منها الأمة في الصدر الأول من تاريخنا الإسلامي. ثم انحسرت أو انحسر أثرها وانقرضت أكثر أطيافها، حتى ظهرت في العصر الحاضر لتمارس جرائمها مرة أخرى.

والتكفير مشكلة خطيرة، تستخدم النصوص الشرعية لغير معناها، وفي غير مقاصدها؛ مما يحقق أهدافاً كثيرة من أهمها الوقيعة بين أبناء الأمة، ليقتتلوا ويسفك بعضُهم دمَ بعضٍ. ومتى بلغ الأمر بين الناس سفك الدماء يغدو من الصعب معالجة الحالة التي وصلوا إليها. ومنها تشويه الإسلام بإظهاره ديناً يدفع بالناس إلى سفك الدماء، وإكراه الناس على اعتناق عقيدته، والتمسك كرهاً بشريعته. وهذا يعود بالتالي إلى تنفير غير المسلمين عن الإسلام، وسد الطرق التي تصل ثقافات الشعوب ومعارفها وديناتها ببعضها. ولعل أشد مخاطر التكفير جعل الأمة المسلمة تتآكل ذاتياً؛ من خلال تكفير أبناء الأمة بعضهم بعضاً. مما يضعف الأمة ويجعلها لقمة سائغة في فم دول الطغيان والاستكبار، وتمكينها من فرض وصاية جديدة على الدول الإسلامية.

ولعل المناخ المناسب لنشر ظاهرة التكفير إنما هو مناخ الجهل والفئوية العرقية والطبقية وغيرها من مظاهر التشتيت للأمة الواحدة، على النقيض مما يتجه إليه القرآن في تعاليمه وتوجيهاته. فكتاب الله يدعو إلى جمع الكلمة فيقول داعياً إلى جمع الشمل، وممتنا عليهم بتوحيد صفوفهم على الحق والهدى، بعد أن سادت فيهم الفرقة والعداء: ﴿**وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾[1]. ويجعل من الدين سبيلاً لجمع الشمل، بينما التكفيريون يجعلون من الدين أداة لتمزيق وحدة الأمة. ويقول: ﴿**وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ**﴾[2]، مُحرِّماً التنازع المؤدي إلى الفشل والهزيمة.

ويقول: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾[3].

ويجعل سبيل الدعوة إلى الحق إنما يتمثل في الحوار الودّي والعلمي فقال: ﴿**ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾[4].

ونهانا أن نحاور غير المسلمين من أهل الكتاب ونحوهم إلا بالتي هي أحسن، فقال موضحاً ضرورة البدء في محاورتهم من نقاط الاتفاق: ﴿**وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾[5]. ويحدد كتاب الله منهج الدعوة بطريق الحوار، ويمنع أسلوب الإكراه بقوله: ﴿**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**﴾[6]، والنبي ﷺ يوجه أصحابه إلى منهج الدعوة، فقد كان رسول الله ﷺ إذا بعث أحدا من أصحابه للدعوة قال: «**يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَسَكِّنُوا وَلَا تُنَفِّرُوا**»[7].

فأين منهج التكفيريين قديماً وحديثاً من الإسلام، وأوامر الله وتوجيهات نبيه ﷺ ؟!

سوف أعرض فيما يأتي لبيان معنى التكفير في اللغة والاصطلاح، ثم عرض النصوص الشرعية وأقوال علماء العقيدة والفقه التي تتناول بيان حكم التكفير، ثم أعرض لظاهرة التكفير في التاريخ الإسلامي؛ ولاسيما في الصدر الأول، من خلال عرض حركة الخوارج التي كان لها أخطر الأثر على الأمة الإسلامية. وأُعقِب العرض التاريخي في الصدر الأول بتحليل تلك الظاهرة وأسبابها وعوامل ظهورها وآثارها. ثم أعرض لظاهرة التكفير في العصر الحديث، ولا سيما في الفتنة التي أوقدت في وطننا ولا تزال رحاها تدور فيه، لتنشر الموت والخراب. ولتمارس أقذر دور في محاربة الإسلام باسم الإسلام، وخدمة العدو بوقاحة لم يسبق لها نظير. وبدعم من دول تدّعي الإسلام؛ وهي تتعامل مع العدو الصهيوني. ودول غربية تكالبت على بلادنا بغية فرض وصايتها على سيادة القرار الوطني، وتوفير المناخ الآمن للتوسع الصهيوني. وبدعم غدا صريحاً من دولة العصابات الصهيونية.

ثم نحاول أن نصل من خلال العرض التاريخي وتحليل هذه الظاهرة قديماً وحديثاً إلى منشأ هذه الظاهرة ومخاطرها، وسبل كبح جماحها، إن شاء الله وبالله التوفيق.

المبحث الأول: مفهوم التكفير

المطلب الأول: التكفير في اللغة والاصطلاح

ذكر في مختار الصحاح أن **الكُفر** ضد الإيمان، وكَفَر من باب نصر، وأن **الكُفر** أيضاً جحود النعمة، وهو ضد الشكر. ويقال: كفره كفراناً، أي جحده.

أما **الكَفْر فهو** التغطية، وهو من باب ضرب. **والكَفْر** أيضاً القرية، ومنه تسمية كفر سوسة مثلاً وكفر تخاريم. وكل شيء غطى شيئاً فقد **كَفَرَه.** ويسمى الزارع كافراً لأنه يغطي البذر بالتراب.

ويقال: لا نكفّر أحداً من أهل القبلة: أي لا ننسبه إلى الكُفر[8].

وقال في اللسان[9]: في بيانه لحديث النبي ﷺ: «**لاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ**»[10]، عدّ قتال المسلمين بعضهم بعضاً بمثابة الكفر. والقول الثاني: أنه يكفّر الناس، فيكفُر، كما تفعل الخوارج، إذا استعرضوا الناس فيكفّرونهم. وهو كقوله ﷺ: «**أَيُّمَا رَجُلٍ قَالَ لِأَخِيهِ يَا كَافِرُ، فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا**»[11].

ثم قال: كفّر الرجلَ: نسبه إلى الكفر.

من خلال ما عرضته من معان لغوية لمادة (ك.ف.ر) يتضح أن الكفر ضد الإيمان، أي أن الإيمان الذي يعني أعلى درجات التصديق، فإن الكفر يعني الإنكار، فإن ما يؤمن به فريق من الناس هو ما يصدقونه في دينهم، والفريق الآخر الذي لا يتفق معهم في تصديق ما يؤمنون به هم كفرة بما يؤمن به الفريق الأول. وهذا لا إشكال فيه. فمن أنكر وجود الله أو أنكر بعض أركان الإيمان عند المسلمين هو كافر بها. وفي الوقت ذاته فإن المسلم المنكر لما يعتقده مخالفوه؛ أي لا يصدق به، هو في نظر هذا الفريق من غير المسلمين كافر بما يعتقدون به.

نتيجة المعنى اللغوي وتحليله في الواقع العملي: والعلاقة بين المسلمين وغيرهم في عصر النبوة وعلى مرّ التاريخ في جوانب الحياة الأخرى طبيعية، لأن المجتمع فيه المسلم وغير المسلم منذ عهد النبوة. إنما الإشكال في اتهام فريق من المسلمين فريقاً آخر منهم بالكفر. أي يكفرونهم، ومعنى يكفّرونهم: أي ينسبونهم إلى الكفر، مع أن كلا الفريقين ينتسب إلى الإسلام. ليبدأ الصراع والنزاع، لاسيما عندما يكون أحد الطرفين

متشنجاً لموقفه، متطرفاً في طريقة معالجة اختلافه مع مخالفيه، فيجعل تكفيره لمخالفه مسوغاً لسفك دمه، ومقاتلته. مع أن الكفر في الأصل ليس مسوِّغاً للقتال. والجهاد القتالي لم يشرع لإلزام أحد على الإسلام[12]. وإنما شرع لمواجهة من يحارب الدولة، أو يعتدي على أبنائها. أو ما يسمى بظاهرة "البغي"، أعني الخروج المسلح على الدولة.

المطلب الثاني: التكفير في النصوص الشرعية وعند أئمة الفقه وعلماء العقيدة:

ــ في القرآن: ذهب علماء التفسير في بيان قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾[13] إلى حرمة وصف المسلم بالكفر، فقد نقل البغوي في تفسيره عن عكرمة قوله في تفسير الآية: ((هُوَ قَوْلُ الرَّجُلِ لِلرَّجُلِ يَا فَاسِقُ يَا مُنَافِقُ يَا كَافِرُ. وَقَالَ الْحَسَنُ: كَانَ الْيَهُودِيُّ وَالنَّصْرَانِيُّ يُسْلِمُ، فَيُقَالُ لَهُ بَعْدَ إِسْلَامِهِ يَا يَهُودِيُّ يَا نَصْرَانِيُّ، فنهوا عنه ذَلِكَ))[14]. وذكر ابن عطية في تفسير هذه الآية: ((وقال ابن زيد. معنى: وَلا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ أي لا يقول أحد لأحد: يا يهودي بعد إسلامه. ولا يا فاسق بعد توبته. ونحو هذا))[15].

ــ في السنة: روى البخاري عن أبي هريرة ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «**إِذَا قَالَ الرَّجُلُ لِأَخِيهِ يَا كَافِرُ، فَقَدْ بَاءَ بِهِ أَحَدُهُمَا**»[16]، وروى مسلم أن رسول الله ﷺ: «**أَيُّمَا امْرِئٍ قَالَ لِأَخِيهِ: يَا كَافِرُ، فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا، إِنْ كَانَ كَمَا قَالَ، وَإِلَّا رَجَعَتْ عَلَيْهِ**»[17].

ذكر الإمام النووي في شرحه للحديث: ((فِي تَأْوِيلِ الْحَدِيثِ أَوْجُهٌ أَحَدُهَا أَنَّهُ مَحْمُولٌ عَلَى الْمُسْتَحِلِّ لِذَلِكَ، وَهَذَا يُكَفَّرُ فَعَلَى هَذَا مَعْنَى بَاءَ بِهَا أَيْ بِكَلِمَةِ الْكُفْرِ، وَكَذَا حَارَ عَلَيْهِ وَهُوَ مَعْنَى رَجَعَتْ عَلَيْهِ أَيْ رَجَعَ عَلَيْهِ الْكُفْرُ. فَبَاءَ وَحَارَ وَرَجَعَ بِمَعْنًى وَاحِدٍ وَالْوَجْهُ الثَّانِي مَعْنَاهُ رَجَعَتْ عَلَيْهِ نَقِيصَتُهُ لِأَخِيهِ وَمَعْصِيَةُ تَكْفِيرِهِ، وَالثَّالِثُ أَنَّهُ مَحْمُولٌ عَلَى الْخَوَارِجِ الْمُكَفِّرِينَ لِلْمُؤْمِنِينَ...))[18].

وخلاصة ذلك أن وصف المسلم بالكفر منهي عنه، وقد بلغ ببعض العلماء حمل الحديث على ظاهره، فحكموا على من قال لمسلم: يا كافر بالكفر، إلا أن الإمام النووي وآخرين لم يحكموا بذلك مطلقاً، بل قيدوا ذلك بمن يستحل ذلك، أي يعدّ وصف المسلم بالكفر حلالاً.[19] وقد نص العلماء في باب التعزير على تعزير من ثبت أنه وصف مسلماً بالكفر. من ذلك ما ورد في العناية شرح الهداية للحنفية،[20] وفي الروض المربع

للحنابلة[21]وفي الشرح الكبير للدردير[22]. وقد نص على ذلك علماء العقيدة، ومنهم ابن حزم الأندلسي في كتابه "الفصل في الملل والأهواء والنحل"[23].

والخلاصة: أن عامة العلماء منعوا تكفير المسلم، إلا بناء على دليل قاطع يثبت كفره، بأن ينكر أمراً ثابتاً بدليل قطعي من أمور ديننا، أو يتصرف تصرفاً يحمل دلالة قطعية على الكفر كسجود لصنم أو نحو ذلك. أما إن كان على سبيل السب والشتم أو التعيير بأصله فإن فاعل ذلك يعاقب بالتعزير[24].

المبحث الثاني: التكفير في التاريخ الإسلامي

المطلب الأول: ظاهرة التكفير في التاريخ الإسلامي

بدأت ظاهرة التكفير عند الخروج على ولي الأمر أمير المؤمنين في عهد سيدنا علي﵁ تأخذ شكلاً متشدداً، وكانت سياسة سيدنا علي مع الخارجين على بيعته أن يحاورهم. وكانوا امتداداً للخارجين على الخليفة الراشدي الثالث عثمان ﵁. ويتجلى ذلك من خلال حديث من خرجوا عليه يوم صفين؛ ومن أشدهم ما أشار إليه الشهرستاني في الملل والنحل: ((اعلم أن أول من خرج على أمير المؤمنين علي﵁ جماعة ممن كان معه في حرب صفين، وأشدهم خروجا عليه ومروقا من الدين: الأشعث بن قيس الكندي، ومسعر بن فدكي التميمي، وزيد بن حصين الطائي؛ حين قالوا: "القوم يدعوننا إلى كتاب الله، وأنت تدعونا إلى السيف! حتى قال: أنا أعلم بما في كتاب الله! انفروا إلى بقية الأحزاب! انفروا إلى من يقول: كذب الله ورسوله، وأنتم تقولون: صدق الله ورسوله". قالوا: لتُرجعن الأشتر عن قتال المسلمين، وإلا فعلنا بك مثل ما فعلنا بعثمان)).

هذا النص يدل على أن الخوارج إنما ظهروا يوم ثارت الفتنة من مصر ضد عثمان بن عفان ﵁، وفي الناس يومئذ بعض من اغتروا بأكاذيب لُفقت، وفيهم من يَصدُق فيهم الوصف التاريخي: "ركب الشقا" إذ كانوا من الغوغاء الذين تدفعهم يد خفية، مستغلة جهلهم وسوء أخلاقهم. وهؤلاء لم يكن لهم ميل إلى علي ضد عثمان، ولا لمعاوية ضد علي، وإنما كانوا يريدون إثارة الفتنة. والناس يومئذ فريقان فريق من الصحابة الذين صقلتهم التربية النبوية إلى حد بعيد، وإنما كان الكثير منهم يفتقر إلى مزيد من الوعي

والحذر. وفريق من حديثي عهد بالإسلام، بعيدون عن مناهل العلم والمعرفة والوعي، استغل ذلك فيهم من كان يسعى لتقويض الإسلام من داخل بنائه، من خلال هؤلاء الغوغاء الذين يسهل استدراجهم وتضليلهم وإغواؤهم. فاتجهوا إلى المدينة ناقمين على سيدنا عثمان ﷺ بأكاذيب أو أخطاء اجتهد فيها عثمان، إن صحت نسبتها إليه.

ولم يكن كثير من الناس يتصور أن يصل الأمر بركب الشقا والغوغاء إلى قتل عثمان، الذي لم يرض أن تُراق من أجله قطرة دم. بينما كان في حراسته الحسن والحسين بأمر من سيدنا علي رضي الله عنهم جميعاً. ولخوف عثمان عليهما أبى عليها إلا أن يعودا إلى أبيهما الذي غضب لعودتهما، ولكن قدَر الله كان سيقع، فاقتحم ركب الشقا على عثمان بيته وقتلوه صائماً وهو يقرأ كتاب الله. فهؤلاء طليعة الخوارج.

ويتجلى ذلك في قولهم لسيدنا علي: ((لترجعن الأشتر عن قتال المسلمين، وإلا فعلنا بك مثل ما فعلنا بعثمان))، أي أن البداية التي ظهرت في خلافة عثمان هي نفسها التي أثارت الفتنة ضد سيدنا علي حتى انتهت بقتله أيضاً. لكن المسوغات التي وضعت للفتنة الأولى تختلف عنها في الفتنة الثانية موضوعاً، وتتفق معها من حيث كونها مغالطات وافتراءات، لعل بعضها انطلى على كثير الناس، ثم ما لبثت أن انكشفتْ، ولكن بعد أن فعلت بالأمة ما فعلت، فهل تركت فيها عظة لمتعظ؟

المطلب الثاني: علاقة فتنة الخوارج بظاهرة التكفير:

خالف الخوارج عامة الصحابة، وقد جمعوا من حولهم الأعراب والجهلة بشعارات استمالوهم بها، وخرجوا على سيدنا علي ﷺ محتجين بأمور حكموا بتخطئته فيها:

ــ أنهم جعلوا الإمامة إلى من نصبوه هم وارتضوه. وأجازوا أن لا يكون للأمة إمام. أي أنهم سوغوا حالة الفوضى السياسية.

ــ أنه حكّم الرجال، أي في خصومته مع معاوية بشأن قتلة عثمان ﷺ، مع أنهم هم الذين حملوه على التحكيم. ولكنهم تجاوزوا الحكم بتخطئته إلى الحكم بكفره، بل طعنوا في عثمان، ونالوا منه، وبلغ بهم الأمر إلى تكفيره.[25]

وأمر التكفير خطير كما مرّ معنا في أول المبحث[26]. وإنما لجؤوا إلى التكفير لتسويغ استباحة دماء مخالفيهم من أئمة المسلمين وعامتهم، بل جعلوا تكفير مخالفيهم وقتله

علامة على ادّعاء أحد من الناس أنه منهم. فقد نقل في كتاب الفَرق بين الفِرق أن فرقة الأزارقة منهم كانت من أشد الخوارج وأعنفهم، فكانوا يحكمون بكفر أو شرك مخالفيهم. وأنهم كانوا يمتحنون من يدعي أنه منهم أن يدفع إليه أسير من مخالفيهم فيأمروه بقتله فإن قتله صدقوه، وإلا وصفوه بالكفر والنفاق وقتلوه !! ومن غلوّهم أنهم استباحوا قتل نساء وأطفال مخالفيهم، وزعموا أن أطفال مخالفيهم مشركون مخلدون في النار. واستحلوا أمانة مخالفيهم، بحجة أن مخالفيهم مشركون فلا يلزمهم أداء الأمانة إليهم.[27]

على أن الخوارج افترقوا فرقاً متعددة. منهم المحكّمة الأولى، وهم من أشدهم تمسكاً بظاهر الدين وعنفاً وشدة في مواجهة مخالفيهم. ومنهم الأزارقة وهم أيضاً من المتشددين والمكفرين، وهم الذين قتلوا سيدنا علياً ﷺ، وهم ممن قالوا بإباحة قتل الأطفال والنساء. ومنهم النجدات العاذرية ... وقد استباحوا سبي نساء مخالفيهم، وإن خالفوا الأزارقة في بعض مذهبهم. وقد قضى عليهم عبد الملك بن مروان بجيش جعل في قيادته عمر بن عبيد الله التميمي. ومنهم البيهسية والعجاردة والثعالبة والإباضية.

أمّا الإباضية فهي فرقة معتدلة، إذ لم يكفّروا مخالفيهم. وهم الآن موجودون في عمان والجزائر وليبيا. وقد غدا مذهبهم ذا ملمح فقهي، لا يخالفون أهل السنة في العقيدة بأمور فيها تكفير وغلو، سوى أنهم يوافقون المعتزلة في بعض معتقداتهم.

وهم الآن أقرب إلى عامة المسلمين في كثير من شأنهم. فلا يصنفون بين المكفرين والغلاة كما يصنف الخوارج.

المبحث الثالث: التكفير والتطرف والعنف في الصدر الأول

المطلب الأول: تحليل ظاهرة التكفير والتطرف والعنف في الصدر الأول

ــ يلاحظ أولاً أن الجماعات المتطرفة لم يكن فيها أحد من الصحابة تقريباً، وأنهم إنما جاؤوا من مناطق نائية عن عاصمة الدولة الإسلامية، وعن المراكز التي تعد متميزة بالعلم وكثرة العلماء كدمشق.

ــ يلاحظ أن أصابع خفية كانت تحرك الأحداث، وتتجه نحو تصعيدها، من حيث التطرف العقدي والعنف واستباحة الدماء.

وأذكر أمثلة على ذلك: قضية الرسالة المزعومة التي حملها من يدعي أنه رسول عثمان إلى عامله في مصر، التي كان يتجه إليها الركب الذي فاوض عثمان، ووصل معه إلى اتفاق. ليجد الوفد في الطريق رجلاً يظهر ويختفي أثناء سيرهم، بقصد لفت أنظار الوفد إليه، وليس معروفاً من قبل كثير منهم. ليوقفوه ويتضح أنه يحمل رسالة إلى عامل عثمان على مصر يأمره بقتلهم !! مما يدل على أنه كان ثمة تواطؤ بين من يحرك الوفد من وراء ستار وهذا الرسول المزعوم. وقد عاد الوفد، وقد تأجج حقدهم على عثمان، وصاروا يحرضون على قتله. بينما أقسم عثمان على أنه لم يرسل أي رسالة وأن خاتمه لديه، وأن ثمة تزويراً تم على خاتمه.[28]

ومن خلال ما أورده الدكتور يوسف العش نقلاً عن تاريخ الطبري من رواية سيف بن عمر التميمي يلاحظ أن دوراً خفياً مارسه عبد الله بن سبأ ذو الأصل اليهودي، من أهل صنعاء، والذي أظهر الإسلام في زمن عثمان، وتنقل من الحجاز إلى البصرة إلى الكوفة والشام، بغية إضلال الناس وإثارة الفتنة، فلم يتمكن من ذلك بنظر بعض المؤرخين. حتى وصل إلى مصر، فوجد فيها بيئة تقبلت ضلالاته. ومنها أنه إذا كان عيسى سيرجع فإن محمداً أولى بالرجعة، ويفسر الآية: ﴿**إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ**﴾[29] بذلك، وغير ذلك مما يؤدي إلى نشر الفوضى والخلافات، وإثارة الفتنة بين المسلمين[30]. وبث دعاته الذين تمكن من استمالتهم إليه في البلاد بصورة سرية ونشروا كتباً تحرض على الخروج على الولاة، وإثارة الرعية عليهم وعلى الخليفة. وكان عامة من تأثر بفتنته من الأعراب والغوغاء، ومن ذوي الأغراض.

وقد دفع بجماعته الذين استجابوا لضلالاته في مصر للاحتجاج على عثمان ومناظرته بافتراءات وادعاءات تثير الفتنة، فردّ عليهم افتراءاتهم. وعادوا إلى مصر وتواعدوا على العودة في موسم الحج بصفة حجاج، واندسوا بين الحجاج تمويهاً؛ وهم يقصدون شراً. وخرج من الكوفة مثلهم ومن البصرة كذلك. وكل فريق كان يميل إلى أحد الصحابة يدعي نصرته، وإنما فعل عبد الله بن سبأ ذلك حتى لا تجتمع لهم كلمة. وإنما اجتمعوا على ثورة وفتنة يقتلون بها عثمان. ويثيرون بها فتنة عمياء. حتى تمكنوا من قتل سيدنا عثمان ﷺ في 18 ذي الحجة سنة 35 للهجرة.

ــ والمشهد الآخر في البصرة يؤكد وجود الأصابع الخفية، يوم ظهرت عائشة وطلحة والزبير، وأرسل علي إليهم القعقاع بن عمرو الذي تمكن من جمع أمرهم إلى الصلح مع سيدنا علي رضي الله عنهم جميعاً. واتجه علي نحو البصرة، فقال الأشتر ــ وهو ممن كانوا فيمن شارك في قتل عثمان ــ: إذا تصالح علي وعائشة فعلى دمائنا، فلنقتل علياً ونلحقه بعثمان. ولم يرض بذلك ابن السوداء (ابن سبأ) ونصحهم أن يتفرقوا بين الفئات، فإذا اجتمع أمرهم بدأ كل فريق منهم يرمي على الفريق الآخر، لقطع الطريق على التفاهم.

وكان سيدنا علي قد خطب الناس وحمد الله وأثنى عليه، ثم نصحهم أن يكفوا أيديهم وألسنتهم عن الآخرين، لأنهم إخوانهم. واتجه الجميع نحو الصلح، واطمأن الناس واتفق علي وطلحة والزبير على الصلح ثم مضى كل منهم إلى عسكره. وأغاظ ذلك أهل الفتنة، وعزموا على إثارة الحرب، حتى إذا عم الظلام اندس بعضهم بين أصحاب علي وبعضهم بين أصحاب طلحة، وهكذا، ثم بدأ كل فريق يرمي على الفريق الآخر، وإنما كان الذي يرمي أهلُ الفتنة المندسون بينهم.ولم يكن في عزم علي ولا عائشة ولا طلحة ولا الزبير القتال. وإنما وضع السبئية سيوفهم ورماحهم في الناس، للوقيعة وليستحر القتل. ويمتنع الصلح[31].

لم أعرض هذه المشاهد لمجرد عرض قصة تاريخية، وإنما أردت من خلال ذلك أن أربط بين ظاهرة العنف والشراسة التي أظهرها الخارجون على الخليفة وبين فكرة التكفير التي بها سوغوا لأنفسهم استباحة دماء الناس، وبين ما يتجلى من خلال الأحداث التاريخية من وجود أصابع خفية تدير الفتنة وتسير بالناس في مسالك غوغائية.

فعبد الله بن سبأ الذي أظهر الإسلام ومضى يتنقل بين البصرة والكوفة والشام ومصر ومكة والمدينة، لم يكن تنقله سياحة، وإنما كان يبحث عن تشكيل "تنسيقيات" ليحركها في "ساعة الصفر"[32].

ووجد تربةَ مصر أكثر مناسبة لينطلق منها بتحريك جماعته لاغتيال الدولة الإسلامية من خلال شخص الخليفة، وبدء فتنة خطط لها بصورة متدرجة، بحيث توجد فجوة بين

أطياف المجتمع الإسلامي لا يمكن ردمها. وكلما حاول العقلاء إصلاح ما أفسد طرح أموراً من شأنها إعادة حالة الخلاف والشقاق بين أبناء الأمة، وبطريقة خبيثة يصعب تجاوز الطروحات التي يثيرها. مع أن الإخلاص والوعي قد خفف الكثير من آثار الكيد الذي رسم خطته، وتابعه في إتمامها من بعده خلفاؤه وحلفاؤه.

كان يدرك إلى من تميل عواطف الناس في كل جهة، فيظهر تأييدها، ويدرك أن سيدنا علياً صاحب الحظ الأوفر في القبول بين الصحابة، فادعى نصرته في مواجهة ظلمٍ لحق به، وجعل العصبية القبلية لدى الغوغاء والجهلة أحد الأدوات التي يستخدمها عند اللزوم، ويطول الحديث إذا ما أردنا بيان ذلك؛ إلا أني أعتقد أن القارئ المتدبر لما بين السطور السابقة يستشف كثيراً مما عرضت. وقد يتطلب الأمر بحثاً ضافياً موسعاً يظهر كثيراً مما يضيق المجال هنا عن عرضه بصورة أكثر وضوحاً وتفصيلاً.

المطلب الثاني: أخطر معتقدات الخوارج:

ذهبوا إلى أن المسلم يكفر بارتكاب المعصية، أياً كانت، حتى وإن كانت نتيجة اجتهاد لم يوافق اجتهادهم. وقد كفروا سيدنا علياً ﷺ لأنه رضي بالتحكيم في خلافه مع معاوية[33] ونقل الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه"تاريخ المذاهب الإسلامية" عن سيدنا علي هذا النص: ((فإن أبيتم إلا أن تزعموا أني أخطأت وضللت، فلم تُضلون عامة أمة محمد ﷺ، وتأخذونهم بخطئي وتكفرونهم بذنوبي؟. سيوفكم على عواتقكم تضعونها مواضع البُرء والسقم، وتخلطون من أذنب بمن لم يذنب، وقد علمتم أن رسول الله ﷺ رجم الزاني المحصن ثم صلى عليه، ثم ورثه أهله. وقتل القاتل وورث ميراثه أهله، وقطع يد السارق وجلد الزاني غير المحصن، ثم قسم عليهما من الفيء، ونكحا المسلمات، فآخذهم رسول الله ﷺ بذنوبهم وأقام حق الله فيهم، ولم يمنعهم سهمهم من الإسلام ولم يخرج أسماءهم من بين أهله))[34].

أحسب أن هذا النص يتضمن رداً مفحماً لهذه الفرقة التي ركبت رأسها غلواً وعناداً، دون أن يكون لها من كتاب الله وسنة نبيه حجة ولا دليل. قال في الفرق بين الفرق: ((ثمَّ اخْتلفت الْخَوَارِج بعد ذَلِك فِيمَا بَينهَا فَصَارَت مِقْدَار عشْرين فرقة كل وَاحِدَة تكفر سائرها))[35]، ومنهج الغلو ظهر في غيرهم، إلا أنهم كانوا أشد تطرفاً وخطراً. فهم

الذين ابتدأ ظهورهم بقتل سيدنا عثمان وبلغ بهم الشر قتل سيدنا علي ﷺ، واستباحوا دماء المسلمين، ثم آل بهم الأمر أن يكفر بعضهم بعضاً.

ويعلل الشيخ محمد أبو زهرة تطرف الخوارج بأن أكثرهم كان من عرب البادية وفقرائها، والتزموا بالإسلام بعاطفة دون علم، وبسذاجة وضيق أفق وجهل. فكان ذلك سبباً في قسوتهم وتعصبهم وتهورهم[36]. وهذا لا يعني أن الخروج كان بسبب ذلك وحده. وإنما يعني أنهم غدوا تربة خصبة للمغرضين، الذين يريدون تقويض الدولة الإسلامية، أو الذين كانوا يطمعون ببلوغ كرسي الحكم، فاستغلوا الغوغاء لإثارتهم ضد الخليفة، ووصفوا لهم مخالفيهم بالكفر والردة، ومن ثم استباحوا دماء أجلاء الصحابة.

ولا أجد ما يقتضي عرض المذاهب المغالية الأخرى التي تحمل توجهاً تكفيرياً؛ لانقراضها ولعدم وجود تأثير مباشر لها على المجتمع الإسلامي الأول. وقد انقرضت تقريباً، بحيث لم يعد لها وجود إلا في الكتب.

المبحث الرابع: ظاهرة التكفير في العصر الحاضر

المطلب الأول: أصولها وفئاتها والأسس الفكرية التي تستند إليها

لعل الغزو الأوروبي الأخير للعالم الإسلامي، وبصورة خاصة، لبلاد الشام ومصر أوجد حالة من الإحباط والرفض لدى عامة الناس، سواء بدافع قومي أو بدافع ديني. ذلك أن سيطرة القوى الأجنبية على بلد ما لن يقابل بالرضا والارتياح، بل سيقابل بالرفض. إلا عند من استمرأت نفوسهم مهانة العمالة وتقبلت دناءة الخيانة. وقد أعدت الدول المستعمرة (حسب المصطلح المستخدم لها) لنفسها قواعد وأدوات لها في المنطقة، تمجد الأجنبي وثقافته وتسوغ نفوذه وتحكمه. وهؤلاء ليسوا موضع بحث هنا. إنما الذي أريد أن أشير إليه هنا أن حالة الإحباط التي أصابت المنطقة نتيجة الهزائم، وتحكم الأجنبي في بلاد كان لها في التاريخ أمجادها وحضارتها، دفعت بالكثيرين إلى البحث عن استعادة مجد الأمة ومكانتها وقوتها وحضارتها. وصدرت كتبٌ تتحدث عن شروط النهضة، وقامت أحزاب أو جماعات تسعى فيما تدعو إليه إلى الحرية والحضارة ووحدة الأمة.

وإن جلاء المستعمر عن المنطقة لا يعني أنها غدت بمنأى عن مطامعه، بل إن المعسكر الغربي لا يزال يرى في المنطقة مصالح، له الحق في السيطرة على مقاليدها ومقوماتها. ويرى في الحضارة والثقافة التي تتمتع بها بلادنا خطراً يهدد مصالحها، ويرى أن وعي الأمة مما ينبغي أن توضع دونه العوائق.

وبما أن هذه الأمة أمة متدينة، والتدين أصيل في حياتها سواء بالإسلام أم بالمسيحية، وقد أَلِفتْ الأمة العيش المشترك، على اختلاف أطيافها؛ كما هو واضح في بلادنا ... فقد وجدت الدول المعادية لنا أن الدين ورقة، يمكن أن تكون مصدر قوة في رفض هيمنتها على مقدرات ومصالح وقوة أمتنا، كما يمكن في حال أخرى جعله ورقة تستخدمها في إضعاف وحدة وسلامة هذه الأمة. وذلك من خلال افتعال صراعات طائفية من شأنها تمزيق وحدة هذه الأمة، ومن ثم يسهل على تلك الدول السيطرة والتحكم بمنطقتنا، وفرض نفوذها وهيمنها عليها.

ولا ينكر أثر الغزو الفكري والثقافي لأمتنا بغية إفسادها، فقد اجتاح هذا الغزو العالم كله، ومن ثم فإنه لا مناص من اجتياحه لبلادنا، وتأثيره على أبناء أمتنا. ولاسيما إذا أمكن أن يُضعف الوازع الأخلاقي والديني والوطني من نفوس شبابنا. فثمة تأثير متبادل بين الغزو الثقافي وضعف الوازع الديني والأخلاقي والوطني. فالغزو الثقافي من شأنه إضعاف الوازع الديني والوطني والأخلاقي، كما أن ضعف هذا الوازع من شأنه أن يجعل من شبابنا تربة خصبة للغزو الثقافي وآفاته الخطيرة.

ووسائل الإعلام المختلفة، ومِن بعدِها وسائل التواصل بأنواعها، بمقدار ما يمكن أن تحقق من إيجابيات، يمكن أن تشكل بيئة خطيرة جداً؛ في حال عدم وجود ضوابط لاستخدامها في نشر أنواع المفاسد والتضليل.

وقد شكلت في المرحلة التي نعيشها وسيلة ذات تأثير سلبي خطير في تضليل أبناء أمتنا، ولعل الحرب التي تعرضت لها أمتنا بما يسمى بالربيع العربي كانت حرباً إعلامية بالدرجة الأولى، استغلت الجهات المتآمرة وسائل الإعلام ووسائل التواصل وحولتها إلى غرف إدارة عمليات ضد بلادنا، ولا تزال.

ومن خلال ذلك حورب الدين باسم الدين، وحوربت الحرية باسم الحرية، وحورب الوطن تحت غطاء الدفاع عن مصالح الوطن!!

والذي يهمني هنا أن أقف عند مسألة التكفير التي ظهرت خلال هذه المرحلة، وعلى يد جماعات صنعتها القوى الغربية، بغية تسهيل السيطرة على المنطقة تحقيقاً لمصالحها، وتوفير المناخ الآمن لدولة العصابات الصهيونية.

هذه الجماعات رفعت شعار "الله أكبر" و"لا إله إلا الله محمد رسول الله"، واستهدفت أكثر ما تستهدف المؤسسة الدينية من مساجد ومدارس وعلماء....وقد سار في برنامجها أناس طالما تستروا بالدين، فخدعوا بأقنعتهم الكثير من الناس. ضمن برنامج يحقق للعدو تشريد شعب وتدمير وطن.

وقد أعدّت القوى المعادية لما يجري منذ أمد، من خلال تنمية جماعات تحمل فكراً متطرفاً، تمولها جهات مشبوهة. وقد استدرجت هذه الجماعات الكثير من الجهلة والفتيان بل الأطفال مستغلين جهلهم ورعونتهم، ودفعت بهم إلى ساحة الفتنة ليحققوا من خلال ذلك خدمة مخطط تدمير المنطقة وسفك دماء الناس ... وهدفاً أخطر من ذلك وهو تشويه الإسلام الذي غدا قوي الانتشار في العالم، ليصبح مصدر خوف ورعب ومبعث كراهية واشمئزاز.

وقد ورد في النصوص الدينية ما يحذر من خطورة هذه الجماعات، ومنها حديث النبي ﷺ الذي يرويه الإمام البخاري أن سيدنا علياً ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«يَأْتِي فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ، حُدَثَاءُ الأَسْنَانِ، سُفَهَاءُ الأَحْلاَمِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ البَرِيَّةِ، يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلاَمِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، لاَ يُجَاوِزُ إِيمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ، فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّ قَتْلَهُمْ أَجْرٌ لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ»**[37].

ولست بصدد تحليل سياسي لنشأة هذه الجماعات، وإن كانت نشأتها مشبوهة. وولادتها إنما تمت برعاية أمريكية غربية، وتمويلها وتسليحها من دول لا تخفي عمالتها لإسرائيل وأمريكا، إن لم يكن بشكل مباشر من إسرائيل وأمريكا.

وتضليل هذه الجماعات للناس تم من خلال:

ــ رفع شعارات دينية، كما سبق ذكره.

ــ تسمية كيانهم المزيف "الدولة الإسلامية" وظهورهم بمظاهر إسلامية لكنها منفرة.

ــ فرض أفكارهم ومعتقداتهم التي يحكمون من خلالها على جميع الناس بالكفر إلا على أتباعهم.

ــ ترغيب الناس بالانتماء إليهم عن طريق وعود غيبية بالتمتع بالجنس، من خلال الحور العين، حتى غدا كثير من أتباعهم يتخيل أن قتاله في صفوفهم وقيامه بعمليات انتحارية أقرب طريق لتحقيق نهمهم الجنسي. أو من خلال استباحة أعراض مخالفيهم واسترقاقهم. وهذا من أقذر أساليبهم الدنيئة التي تنسب إلى الإسلام انحطاطهم الأخلاقي.

ــ فرض الإسلام الذي يدّعونه على الناس، بما فيهم النصارى وغيرهم. وقتل وسبي من يرفضون ذلك. بل حتى وإن استسلموا لدعوتهم نجاةً بأنفسهم، تلبية لأهوائهم.

ومناقشة مثل هذه الأمور التي يمارسونها مناقشة علمية لا أعتقد أننا بحاجة إلى مزيد من البيان والمناقشة بعد الذي أوضحته عند مناقشة أفكار المكفرين الخوارج.

المطلب الثاني: تحليل بعض أسس التكفير في العصر الحاضر

وتستوقفني هنا أمور:

ــ مسألة فرض مذهبهم على غير المسلمين: إذا كان ربنا تبارك وتعالى يقول في كتابه الكريم: ﴿**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**﴾[38]، ويقول لنبيه ﷺ: ﴿**لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ**﴾[39]، بل إن الإسلام ضمن سلامة المواطنين غير المسلمين، وضَمِن حريتهم في ممارسة شعائرهم الدينية، وسلامة كنائسهم وصلبانهم، وهو ما تضمنته العهدة العمرية، ودل عليه التاريخ. حيث لا تزال كنائس النصارى ومعابد غيرهم قائمة، منذ فجر التاريخ الإسلامي، أفيكون الصحابة الذين دخلوا هذه البلاد ومَن بعدَهم من التابعين وتابعيهم على امتداد الأجيال إلى عصرنا هذا لا يفهمون الإسلام، حتى جاءت هذه العصابات لتفرض عليهم رغم أنوفهم ديناً لم يفرضه الله عليهم عنوة.!؟ وقد أمر الله تعالى بصريح كتابه أن لا نجادل مخالفينا، والنصارى منهم، إلا بالتي هي أحسن، بل عدّ النبي ﷺ نفسه خصماً مدعياً علىمن مارس مجرد إيذائهم.

ووجود الديانات الأخرى في ظل البلاد الإسلامية إلى يومنا هذا دليل على أن الإسلام لم يفرض على الآخرين اعتناقه، بل نفى أن يكون الإسلام إسلاماً بالإكراه.

ـ تكفير مخالفيهم بحجة أو غيرها، ومبدأ التكفير منهج سارت عليه المدرسة الوهابية التي تدعي أنها تسلك مسلك السلف، أي مسلك الصدر الأول. بينما هي أبعد ما تكون عن منهج السلف الصالح. يكفرون مخالفيهم بتهمة التصوف، وبتهمة الأشعرية، وبتهمة التشيع، وبتهمة موالاة النظام، حتى بلغ بهم الأمر تكفير أي إنسان لا ينقاد لهم. وهم يبادئون الناس بالتكفير، مما جعل أتباعهم يستحلون بذلك دماء الآخرين وأعراضهم. وهذا ما يذكرنا بمنهج الخوارج الذين كفّروا عثمان واستباحوا دمه، ثم قتلوا علياً رضي الله عنهما.

ومن عجب أن أشد الناس عداوة للذين آمنوا (وهم اليهود بنص كتاب الله) لا يستهدفهم هؤلاء بأي إساءة، بل إن أنظمتهم الحاكمة تتعاون معهم سراً وعلانية. ويسوغون ذلك بأن (أشد الناس عداوة للذين آمنوا) أهلُ كتاب، أما المسلمون المخالفون لمذهبهم فهم بنظرهم مرتدون..!! ولذلك فلا حرج من التعاون مع دولة العصابات الصهيونية ضد سورية مثلاً، كما لا تجد دولة العصابات الصهيونية أي مانع من مد يد العون لهم...!

إن مثل هذه المواقف والتصورات يمكن تفسيرها بالنسبة للعامة والغوغاء بأن مصدرها الجهل. ولعل كثيراً منهم غير ملتزم بدينه، ولكنه سار معهم لغرض يبتغيه، أو لتبعية عمياء، أو غره ما كانوا يتمتعون به من قوة ومال ... أما بالنسبة للقادة فيهم فإن مواقفهم وتصوراتهم ومعتقداتهم تجعلهم موضع تهمة، لأنهم يسوقون نصوص الشريعة لغير مقاصدها.

ولذلك فإنني أرى تشابها واضحاً بين الخوارج الذين ظهروا في الصدر الأول، وكان وراءهم بادئ ذي بدء عبد الله بن سبأ، حتى إذا ما حقق هدفه في تمزيق الأمة غاب اسمه عن الظهور. وبين الخوارج الجدد الذي ظهروا في الفترة الأخيرة. وأنا أرى أن الأحداث التي جرت ولا تزال تجري في منطقتنا وفي سورية بوجه خاص لا تنفصل حلقاتها عن بعضها. فأحداث تونس ومصر واليمن وليبيا ثم سورية، والتي بدأت بمظاهرات، ثم تطورت في سورية إلى دعوة لانشقاق الجيش، ثم بدأ توجه المتطرفين

بالدخول إلى سورية لدعم ما يسمى (بالثورة) بعشرات الألوف ... إلى ظهور جبهة النصرة المتسترة بالإسلام والفصائل المتفرعة عنها، إلى ما يسمى داعش... كل ذلك حلقات مترابطة توجهها جهة أو جهات متحالفة، لتحقيق أهداف منها توفير أمن إسرائيل، وتشويه الإسلام. وقد سار في خضم هذه الفتنة من تستر بشعار الإسلام، ولكن الكثير منهم ليسوا متدينين، بل فيهم الملحد وكثيرون ليسوا مسلمين أصلاً، وفيهم من كل أطياف المجتمع.

إذا كان عبد الله بن سبأ وراء حركة التمرد على الدولة الإسلامية الذين انتهى إلى قتل عثمان ثم علي رضي الله عنهما، فإن برنارد هنري ليفي وفابيوس وزملاءه الستة الفرنسيين الصهاينة وغيرهم وراء ما جرى ويجري في منطقتنا عامة وفي سورية خاصة؛ خدمة للكيان الصهيوني والمصالح الغربية.

الخاتمة

من خلال العرض التاريخي لمشكلة التكفير وتداعياتها وآثارها الخطيرة، ومدى مخالفتها لمبادئ وأحكام الدين الحنيف، وكونها أداة خطيرة تستخدمها جهات مغرضة خارجية؛ بغية تشويه الإسلام والتنفير منه، وبغية تمزيق الأمة، في الوقت الذي ينبغي الحرص فيه على وحدة كلمتها، ومن ثم تحقيق مصالح لجهات معادية؛ سواء في صدر الإسلام أو في المرحلة المعاصرة، ومن خلال ما تبين من العرض والتحليل لهذه الظاهرة قديماً وحديثاً، وأنها إنما تستنبت في تربة الجهل، لأن أدواتها غالباً غوغاء جهلة، بالإضافة إلى أدوات رخيصة ارتضت لنفسها أن تكون مجرد جسر تستخدمه الجهات المعادية؛ من خلال ذلك كله نستطيع القول بأن مشكلة التكفير إنما يكمن سببها في أمور:

ـ مناخ الجهل بحقيقة الدين وأحكامه.

ـــ ضعف الوعي، وعدم الانتباه للمكائد التي يخطط لها أعداء الأمة.

ـ ضعف الوازع الديني والأخلاقي عند البعض[40].

ومعالجة هذه الأسباب مسؤولية يشترك في تحملها جهات متعددة، فالوعي إنما يتم من خلال وسائل الإعلام؛ عندما تنبه إلى مصادر الفكر التكفيري الفتنوي، وتكشف عن

أهدافه. والجهل يعالج من خلال المؤسسة الدينية ودورها في مؤسساتها التعليمية، ووضع مناهج للتربية الإسلامية توضح للناشئة حقيقة الفكر التكفيري، وتعارُضَه مع مبادئ الإسلام ونصوصه وتعاليمه، وهذا ما يتم فعلاً ولله الحمد. أما الوازع الأخلاقي والديني فإنه اليوم من أهم ما يجب بثه في النفوس من خلال مناهج مؤثرة تسمو بالنفوس حتى يتحقق فيها هذا الوازع.

ولا شك أن المعاهد الشرعية والمؤسسات التعليمية الشرعية، بما تقدمه للمجتمع من كوادر، تتبوأ مواقعها في الخطابة والتدريس، قد أثبتت أثراً نأمل أن يتنامى من خلال الجهود الرامية إلى تطوير مناهجها بما يحقق هذا الهدف.

أهمّ المراجع

- تاريخ المذاهب الإسلامية: محمد أبو زهرة
- الجهاد في الإسلام: كيف نفهمه، وكيف نمارسه؟ : للعلامة الشهيد د. محمد سعيد رمضان البوطي
- الدولة الأموية: الدكتور يوسف العش
- الروض المربع شرح زاد المستقنع منصور بن يونس البهوتي الحنبلى.
- الشرح الكبير للدردير.
- صحيح البخاري : محمد بن إسماعيل البخاري
- صحيح مسلم بشرح الإمام محيي الدين يحيى بن شرف النووي
- العناية شرح الهداية لمحمد بن محمد بن محمود البابرتي.
- الفرق بين الفرق عبد القاهر بن طاهر الأسفراييني، أبو منصور
- الفصل في الملل والأهواء والنحل
- لسان العرب: ابن منظور
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية.
- مختار الصحاح: للرازي

- المذاهب التوحيدية والفلسفات المعاصرة. للعلامة الشهيد د. محمد سعيد رمضان البوطي
- معالم التنزيل في تفسير القرآن، محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي.
- الملل والنحل للشهرستاني على هامش الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم

---

1 سورة آل عمران/103.

2 سورة الأنفال/46.

3 سورة الحجرات/10.

4 سورة النحل/125.

5 سورة العنكبوت/46.

6 سورة البقرة/256.

7 أخرجه مسلم رقم 1734/8.

8 مختار الصحاح مادة ك ف ر

9 لسان العرب. مادة: ك ف ر

10 أخرجه البخاري رقم 121، وفي غير هذا الموضع. ومسلم رقم 65/118.

11 أخرجه البخاري رقم 6104، ومسلم رقم 60/111

12 ينظر مبحث: هل الجهاد القتالي لدرء الحرابة أم للقضاء على الكفر ؟ من كتاب الجهاد في الإسلام : كيف نفهمه، وكيف نمارسه : للعلامة الشهيد محمد سعيد رمضان البوطي.

13 سورة الحجرات/11.

14 تفسير البغوي 4/ 261

15 تفسير ابن عطية: 5/ 250

16 أخرجه البخاري رقم 6103.

17 أخرجه مسلم رقم 60/111

18 شرح صحيح مسلم للنووي ج 2 ص 50.

19 شرح النووي على صحيح مسلم ج2 ص: 57 فما بعدها.

20 العناية شرح الهداية 5/ 347

21 الروض المربع ج1 ص: 669

22 الشرح الكبير للدردير: 4/ 230

23 الفصل في الملل: 3/ 138

24 التعزير: عقوبة يرجع تقديرها إلى القاضي، لا تبلغ أقصى الحدود عند أكثر الفقهاء

25 ينظر في تكفيرهم سيدنا علياً وسيدنا عثمان الفصل في الملل للشهرستاني ج 1 ص: 117 – 118 .

26 ينظر ص: 4، 5 من هذا المبحث

27 الفرق بين الفرق ص 50 فما بعدها.

28 ينظر تحليل هذه المسألة مع توثيقها للدكتور يوسف العش في كتابه (الدولة الأموية) ط: دار الفكر بدمشق ص: 44

29 سورة القصص/85.

30 الدولة الأموية ص 67

31 المرجع نفسه 94– 96 .

32 معذرة إن استخدمت مصطلحات خاصة استخدمت في الفتنة التي دارت رحاها في سورية، ولا تزال إلى يوم كتابة هذا البحث، لصلة سأشير إليها بين ما جرى يومئذ وما يجري اليوم، وبهدف سيتضح من خلال عرض ظاهرة التكفير المعاصرة..

33 ينظر الفرق بين الفرق للبغدادي ص: 117، والعقائد التوحيدية للعلامة الشهيد البوطي ص: 59

34 المذاهب الإسلامية للشيخ محمد أبو زهرة ص: 108– 109 وينظر: المذاهب التوحيدية للشهيد البوطي رحمه الله. وقد نقل أبو زهرة النص من نهج البلاغة

35 الفرق بين الفرق عبد القاهر بن طاهر بن محمد بن عبد الله البغدادي التميمي الأسفراييني، أبو منصور (المتوفى: 429هـ)

36 تاريخ المذاهب الإسلامية . محمد أبو زهرة : ص: 59

37 أخرجه البخاري رقم 6311، وفي غير هذا الموضع.

38 سورة البقرة/256.

39 سورة الغاشية/22.

40 وقد كان العلامة البوطي رحمه الله قد نبه إلى خطورة ما يخطط لأمتنا من خلال إثارة مشاكل متعددة من أخطرها مشكلة التكفير، في أكثر من كتاب له، بالإضافة إلى خطبه ومحاضراته التي كان يلقيها، وقد ضمن بعضها كتابيه: **قضايا ساخنة، الجهاد في سبيل الله كيف نفهمه وكيف نمارسه. وقد ألفه للرد على أصحاب الفكر التكفيري الذين أثاروا فتنة الجزائر في التسعينات.**